مقابلة

مع ادوارد سعيد(*)

أجرت «باربرة هارلو» الحوار التالي مع إدوارد سعيد في نيسان ١٩٩١ بعد وقوع المواجهة بين الولايات المتحدة والعراق. ونحن ننقل هذا الحوار إلى العربيّة لأهمّيته، على رغم انقضاء وقت طويل على إجرائه.

*** كيف تُصنّف كيفيّةَ عرضِ أزمة الخليج وحرب الخليج في الولايات المتحدة وأوروبّا؟**

ـ في الغرب نجح عرض الأزمة منذ الأسبوع الأوّل لقيامها في آب ١٩٩١ في تشييط صدّام حسين أوّلاً[١]؛ ونجح ذلك العرض ـ ثانياً ـ في شخصنة[٢] الأزمة وفي إلغاء العراق وطناً وشعباً وحضارةً وتاريخاً؛ ونجح ـ ثالثاً ـ في إخفاء دور الولايات المتحدة وحلفائها في تكوين الأزمة.

*** لكنْ كان ثمّة آراء متباينة في الأزمة، ولاسيّما في أوساط المثقّفين.**

ـ أنا أتحدّث عن صنّاع القرار وعن وسائل الإعلام السائدة[٣]. فوسائل الإعلام عبّأت للحرب بالتنسيق الكامل مع الإدارة الأمريكيّة. بل لقد كان عند بعض وسائط الإعلام البديلة والمثقّفين البدلاء [أي غير المرتبطين بوسائل الإعلام السائدة] تلكُّؤٌ في التعامل مع قضايا الشرق الأوسط. وأحد الأسباب في ذلك التلكُّؤ يعود إلى مسرح الأحداث وإلى الناس [أي العرب] الذين هم موضوع هذه الأحداث. ثمَّ هناك ما يزعم البعض أنّه نزعةٌ ما بعد حداثيّة: فقد ذوّتت[٤] الولاياتُ المتحدة ـ بوصفها الامبراطوريّة الأخيرة في العالم ـ الحكمَ الامبراطوري في عقول مثقّفيها. وهذا ما يضع المثقّفين في العادة فوق مثل تلك القضايا، وقد يكون ذلك بسبب شعور منتشر في أوساطهم بالعجز والعنّة والتشتُّت المتأتّي عن [الإغراق في] التخصُّص.

إنّ المجموعة المثقّفة الأمريكيّة في غالبيتها لا تعتبر نفسها مسؤولةً تجاه الصالح العام، ولا تشعر بالمسؤوليّة عن تصرّفات الولايات المتحدة على الساحة الدوليّة. إنّ الولايات المتحدة قد عاقت النضال من أجل حقوق الإنسان في الشرق الأوسط على نحو متكرِّر، وتحالفتْ مع كلّ قوّة معتدية في وجه حقوق المرأة والأقليّات وحقوق الاجتماع الحرّ والتعبير الحرّ. وقد قامت بنصبِ تلك العوائق ضمن إطار سياستها الحاكمة. ومع ذلك فإنّ غالبيّة المثقّفين الأمريكيّين هم في الأساس «ريفيّون» [ضيِّقون] غير مدفوعين إلى التحدُّث إلاّ ضمن نطاق خبراتهم المهنيّة: فإن كانوا متخصِّصين في أمريكا اللاّتينيّة، فإنّهم لا يتحدَّثون إلاّ عن أمريكا اللاّتينيّة؛ وليس لديهم حسّ بالارتباط بالمجال العام، ولا بأيّ قضيّةٍ ما. وإنّي أذكر أنّ أحد أصدقائي ـ وهو ناقد أدبي ماركسيّ يعيش في الولايات المتحدة ـ قد قال لي ذات يوم: «أنت محظوظٌ يا إدوارد! لقد وُلدتَ فلسطينيّاً، لكنّ هذا الإنسان الآخر (الأمريكي) لا قضيّة له وُلد من أجلها». كأنّ ثمّة حظوةً هائلة في أن يكون المرءُ عرضةً للعذابات التي يعاني منها الفلسطينيّون! إن تكنْ أمريكيّاً فإنّك فوق كُلِّ القضايا؛ فإنْ لم تُوَلَدْ لقَضيَّةٍ ما أو لم تنلْ شهادةً جامعيّةً في موضوعٍ ما، فإنّ الأمر لا يعني لك شيئاً!

كان خبراء الشرق الأوسط البارزون يتحرَّقون شوقاً للذهاب إلى واشنطن [حيث صناعة القرار السياسي الرسمي]. ولم يكونوا يقولون هناك أشياءَ تُزعج قطار السياسة الرسميّة. وأمّا المثقّفون الآخرون أمثالنا فقد كنّا مشتّتين، لا سبيل أمامنا للوصول إلى وسائل الإعلام، وكان علينا أن نعتمد على منشورات شبه ساميزداتيّة [ممنوعة][٥].

قابِلْ هذا الوضعَ بالمقابلة اللافتة للنظر التي أُجريت في كانون الثاني عام ١٩٩١ مع المثقّف الأكاديمي الفرنسي جاك بيرك، وفيها استطاع أن يميّز بين صدّام والعراق والعرب والامبرياليّة، وبين وضع حقوق الإنسان في العالم العربي وفي أوروبا من الناحية التاريخيّة،

(*) **Middle East Report**, no.171, July/August 1991, pp. 15 - 20.

(١) التشييط: تحويل المرء إلى شيطان.

(٢) شخصنة: إزاء Personalizing.

(٣) السائدة: إزاء Mainstream.

(٤) إزاء كلمة Internalize، أي: أضفى على الشيء صفة ذاتيّة، أو دمجه في نفسه بحيث أصبح مبدأ هادياً [قاموس المورد]

(٥) Samizdat: كلمة روسيّة تعود إلى عام ١٩٦٠، وتشير إلى المنشورات التي كانت توزّع سرّاً في الاتحاد السوفياتي.

مشيراً إلى أنّ العنف وسفك الدماء ليسا حَكَراً على العراق. ولقد استطاع بيرك ـ مع ذلك ـ أن ينشر المقابلة في **L'Autre Journal** في شباط ١٩٩١. إنّ شيئاً من هذا القبيل لم يحدث في الولايات المتحدة، بل إنّ جميع الأكاديميّين الأمريكيّين تقريباً الذين يمثّلون الاتجاه السائد وهم في وزن جاك بيرك، قد ربطوا أنفسهم بالإدارة الأميركيّة.

*** لكنّ المثقّفين الفرنسيّين، شأنهم في ذلك شأن المثقّفين الأمريكيّين والبريطانيّين، قد فشلوا بشكل عام في الاستجابة [للحرب] على نحوٍ منسجم ومبدئي. هل شكّلت هذه الأزمة للطبقة المثقّفة تحدّياً بأن تبدأ في وضع تاريخها ذاتِه على محكّ التمحيص؟**

ـ لا، لم يحدث هذا تماماً. لقد كان المثقّفون سعداء، ربّما، لأنّ الأزمة قد كانت بهذا القِصَر. إنّ المسألة تكمن في تاريخ طويل من الابتعاد عن الأمور الدوليّة، ولاسيّما أمور الشرق الأوسط والعرب بشكل عام. إنّ من حاولوا منّا أن يُشركوا المثقّفين في المسائل العامّة للمسؤوليّة كانوا قِلّة. وفي هذه الأثناء أُصْدِرَت الولايات المتحدة أدبيّاتٍ كاملةً من الخبرة والمعرفة الفوريَّتيْن، وجميع تلك الأدبيّات تقدّم رؤيةً للشرق الأوسط ولأزمة الخليج تحديداً تدعم إلى حدٍّ كبير موقف الإدارة الأمريكيّة.

*** كيف نما هذا الإعجاب المقدّس بذلك النوع من الخبرة؟ ومن هم أبرز أصحاب السياسة الثقافيّة اليوم فيما يخصّ الشرق الأوسط في الولايات المتحدة؟**

ـ لقد برزت أثناء حرب ڤيتنام مجموعة قويّةٌ وجهيرةٌ في الجامعات، متحدّيةً الإدارة الأمريكيّة. وقد كان لهذه الحركة أثرٌ بيّنٌ في وسائل الإعلام. لكن الفارق بين تلك الحرب وحرب الخليج هو أنّ حرب ڤيتنام قد دامت وقتاً أطول. كما أنّ وجود إسرائيل يشكّل عاملاً تعقيديّاً إضافيّاً.

إنّ الباحثين الأوائل في قضايا الشرق الأوسط قد انجذبوا ـ مع بعض الاستثناءات القليلة جدّاً ـ إلى واشنطن [البيت الأبيض] أو إلى وسائل الإعلام، واستُغلُّوا جميعهم هناك. ولم تكن أنظارهم منصبّة على منطقة الشرق الأوسط، وإنّما كانت منصبّة على الطرق الموصلة إلى ذلك الشرق، كما قدّمتها لهم شركتا CBS و NBC التلفزيونيّتان، وجريدة **النيويورك تايمز** وغيرها، أو كما قدّمتها لهم مؤسّساتُ صناعة القرار في واشنطن. إنّنا لم نشهد في الولايات المتحدة انبثاق معارضة أمريكيّة قويّة متعاطفة مع العرب، شعباً وحضارة، ومع العراق، وطناً؛ ولم نشهد معارضةً تعادي غزوَ الكويت وضمَّها، وتعادي ـ في الوقت ذاته ـ الوجودَ العسكري الأمريكي على أرض الخليج.

عوضاً عن ذلك، فقد تعلّقتْ وسائلُ الإعلام بالسياسة الحربيّة [التي انتهجتها الإدارة الأمريكيّة]، فتبعتها في إبراز عددٍ كبير من العسكريّين المتقاعدين ـ وهم رجال دائماً! ـ، وعددٍ ممّن أُسمّيهم «بالباحثين المقاتلين» (أمثال فؤاد عجمي، ودانيال پايپس، وبرنارد لويس، وهلمّ جرّاً)، وأبرزت إلى جانبهم حفنة من الصحفيّين أمثال «توماس فريدمان». وجميعهم يصعب على المرء أن يميّزهم عن صانعي القرار [في البيت الأبيض].

*** لقد شارك أولئك الباحثون ـ المقاتلون، كذلك، في تأسيس نوعٍ من المناهج الدراسيّة.**

ـ كان ثمّة لائحة من الكتب «المختارة» التي أذاعتها إذاعة NPR، ولم تتضمّن تلك اللائحة أيّاً من الكتب التي كتبها عربي أو التي تتحدّث عن عربي! وأمّا جريدة **النيويورك تايمز** فقد نشرت على صفحة كاملة لائحةً أخرى من الكتب المختارة، لم يكن فيها كتابٌ واحدٌ عن عراقِ ما بعد القرن السابع قبل المسيح تقريباً؛ فبقي العراق عند «سومر»! وكان على تلك اللائحة خمسُ روايات إسرائيليّة، وثلاثة كتب أو أربعة عن تاريخ اليهود، وكتاب لـ «كونور كروز أوبريان»، غير أنّه لم يكن ثمّة كتاب واحد عن تاريخ العراق الحديث أو حضارته الحديثة.

أمامنا الآن «شرعة» (Canon) من الكتب، من بينها كتاب **جمهوريّة الخوف** لسمير الخليل، و**المأزق العربي** لفؤاد عجمي، وكتب الصحفيّين الفوريّة، وبالطبع كتاب توماس فريدمان **من بيروت إلى القدس، وسلام يُنهي كلّ سلام** لدايڤيد فرومكين؛ وقد تشتمل تلك اللائحة على كتاب ألبرت حوراني **تاريخ الشعوب العربيّة**[1]. فإذا استبعدنا الآن كتاب حوراني ـ وهو ليس سهل

(١) سمير الخليل هو اسم مستعار لكاتب عراقي اسمه «كنعان مكيّة» كتب **جمهوريّة الخوف** (القصّة الحقيقيّة لعراق صدّام) عام ١٩٨٩، وكتاباً آخر عن قوس النصر الذي شيّده الرئيس العراقي من خوذات الجنود الإيرانيّين ونصبه في العاصمة بغداد. وقد سطع نجم الخليل أثناء حرب الأميركان ضدّ العراق، وعند إعلان الولايات المتحدة رغبتها في «نجدة» الأكراد.

وأمّا فؤاد عجمي، فهو أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة جونز هوبكنز بالولايات المتحدة. وُلد في أرنون في جنوبي لبنان، ويكتب مقالات كثيرة في الـ **Foreign Affairs** و**Foreign Policy**. من كتبه **المأزق العربي** (١٩٨١) الذي يتحدّث فيه عن «الفكر السياسي العربي وعن الممارسة السياسيّة العربيّة بعد هزيمة ١٩٦٧»، مركّزاً على مصر بوصفها «مرآة للعالم العربي»، وعلى ردود فعل البعثيّين والإسلاميّين والماركسيّين على الهزيمة؛ ومن كتبه =

الاستيعاب، برغم كونه اليوم على لائحة الكتب الأكثر رواجاً ـ فإنّ تلك الكتب ليست، بشكل عام متعاطفة مع العرب وإنّما تدعم أُطروحةً تقول بأنّ الصراعات والعنف في الشرق الأوسط تعود إلى أسباب قَبْتاريخيّة نسبيّاً، أسبابٍ محفورة في مورِثات(*) شعوب تلك المنطقة ذاتها! إنّ أموراً من نوع قيام العرب في القرن العشرين بتقديم أطروحة عقلانيّة عن حسّهم الخاصّ بالتاريخ، وعن هويّتهم وإنجازاتهم، إنّ أموراً كهذه يُصرف النظر عنها [لدى وسائل الإعلام الأمريكيّة السائدة] باعتبارها مُخادعةً ومُضلِّلَةً للذات. وحسب كلمات فؤاد عجمي، فإنّ مشاكل العالم العربي هي نتيجةٌ «لجراحٍ أنزلها الشعب العربي في ذاته»! إنّ طروحات كهذه تبرّئ، إلى حدٍّ بعيد، الولاياتِ المتحدة وصنّاعَ قرارها، وتبرّئ إسرائيل بالطبع، من أيّ دور في هذه الفوضى المروّعة التي نحياها اليوم.

ويقدِّم ريجيس دوبريه في كتابه **المعلّمون والكتّاب والمشاهير** أطروحة لافتةً للانتباه، وهي ذات علاقة بالوضع الذي نبحثه الآن. إنّ أولئك الأساتذة الذين تحدّثتُ عنهم هم جميعهم بدون أيّ إنجاز أكاديمي مميّز أو خبرة أكاديميّة مميّزة. إنّ كتاب فرومكين لا علاقة له حقيقية بالشرق الأوسط من الناحية البحثيّة الأكاديميّة ولا علاقة له بما كتبه قبلاً. وأمّا فريدمان فهو [محض] صحفيّ. وأمّا فؤاد عجمي فأستاذ أقلّ من عادي (mediocre) سبق أن كتب مجموعة من المقالات منذ عشرين عاماً، فضلاً عن كتاب يؤرّخ لحياة الإمام موسى الصدر، وهو كتاب ينبغي أن يُصرف النظر عنه. إنّ جميع هؤلاء الكتّاب ينتمون إلى فئة المشاهير الإعلاميّين، لا إلى فئة معلّمي الجامعات أو الكتّاب الفنّانين. وهم لا يمتلكون أيّ مرتكَزٍ مميَّز في عمليّة الفعل الثقافي أو في مؤسّسات الإنتاج الثقافي. ولهذا فإنّه ـ ويا للمفارقة ـ يَصعُب أن يُزاحوا من مناصبهم وذلك لأنّهم لا ينتمون إلى مؤسّسة معيّنة باستثناء وسائل الإعلام المتّحدة. إنّهم أبناءُ ساعتهم.

*** ما كان أثر أزمة الخليج في الثقافة السياسيّة العربيّة؟**

ـ إنّ انطباعاتي عن ذلك الموضوع هي التالية على نحو تقريبي:

إنّ جميع ما يُنشر في الجرائد اليوميّة في العالم العربي تقريباً ـ وبإمكان المرء أن يجد استثناءات على الدوام ـ دافعُهُ سياسي بالمعنى الضيّق والأشدّ ابتذالاً. فأن تكتب يعني أن تكون مرتبطاً بخطّ أو نظام أو حاكم معيّن. فإذا كنت مستقلاً، غير أورثوذكسي، [أي غير تقليديّ] خلّاقاً بشكل من الأشكال، فإنّه سيكون أمراً بالغ الصعوبة أو مستحيلاً أن تبرز...

*** هل خَلْخَلَت أزمةُ الخليج تلك البنى [التقليديّة العربيّة]، فاسحةً المجال لإعادة تشكيل المشاريع الثقافية؟**

ـ إنّ مصداقيّة «الصواب» قد أُضْعفت. فلمّا كان كلّ ما يُكتب اليوم تقريباً يعكس ـ على نحوٍ مباشر ـ مؤثّراتٍ سياسيّةً بالمعنى الأكثر حرفيّة للكلمة، فإنّه ما من شيءٍ مكتوبٍ سيكون فوق الأسئلة. إنّ الفرص ستتبدّى، وسوف تجري تحالفاتٌ جديدة. غير أنّ السؤال الأوّل الذي سيطرحه الناس لن يكون عمّا إذا كان الكاتب يقول الصدق أم لا، وإنّما سيكون السؤال عن الطرف الذي يتحدّث ذلك الكاتب بلسانه؛ وهذا ما يعبّر عنه القولُ العربي العاميّ «مين وراه»؟

إنّ الحرب قد سبّبت اليوم انهياراً عامّاً في المؤسّسات الثقافيّة في العالم العربي. إنّ أنساق الدعم المادّي والتعيينات الإداريّة قد تغيّرت على نحوٍ نشرع لتوّنا في تقييمه. إنّ ثمّة تحوّلاً زلزاليّاً في طوبوغرافيا [خارطة] العالم العربي الثقافيّة والحضاريّة، وهو تحوّل يصعب تقييمه لكنّه لن يكون جيداً بأيّ حال.

إنّه عالم عربي مقسوم إلى منتصر ومهزوم. الفلسطينيّون مهزومون، والمصريّون يسعون جاهدين إلى أن يبرزوا كمنتصرين. ولهذا كلّه أثرٌ على المستوى المحلّي: على المعاهد والمساعي الثقافيّة والسياسيّة.

ولقد ازدادت الشكوك بين الأقطار العربيّة. فترحيلُ السعوديّة لثمانمئة ألف عامل يمني لم يكن بسبب وجود «طابور خامس» أو بسبب ضياع الاستقرار [في المملكة]، وإنّما كان عملاً يعبّر عن انتقام رخيص من شعبٍ بأكمله.

هناك شيء جديد آخر في العالم العربي: فكرة أن يكون الناس في كلّ بلد عربي من صنفٍ واحد... إنّ هذا أمرٌ غريب على حضارتنا وتاريخنا، ذلك أنّ جوهر المنطقة العربيّة يكمن، تحديداً، في كونها تشتمل على تنوّع هائل. ليس ثمّة نقاءُ(purity) على الإطلاق؛ بل إنّ المنطقة خليطٌ مُكرَّس يكاد أن يتفرّد به الإسلام. وهذا ما دفع الناس إلى أن يعترضوا على الدمجيّات المضحكة المختلفة التي ظهرت في هذا البلد العربي أو ذاك...

= الأخرى الإمام المختفي. وقد عُرف عنه «اعتداله» المُحبّب إلى قلوب اليهود والإسرائيليّين «المعتدلين» وصانعي القرار في واشنطن.

وأمّا توماس فريدمان فمراسل النيويورك تايمز في عدد من بلدان الشرق الأوسط، وقد تحدّث في عدد من مقالاته عن التشويه الذي تُلحقه «إسرائيل» بصورة اليهود في الغرب.

(*) المورّثات: الجينات (إزاء كلمة genes).

*** كيف كان أثر كلّ هذا في الحركة الفلسطينيّة؟**

ـ إنّ جزءاً من هذه الحركة مختلف عن بقيّة الحركات الوطنيّة: فالحركة الفلسطينيّة تتخطّى، بمعنى من المعاني، الحدودَ القوميّة، لأنّها تتحدّث عن مبادئ. غير أنّنا لا نعيش في فراغ. ففي عام ١٩٨٥ ذهبت إلى الكويت ضيْفاً على جامعة الكويت. ولمّا كنتُ دخيلاً، فقد تجاذبني الكويتيّون والفلسطينيّون العاملون هناك من أجل أن يتّهم كلّ طرف الآخر بالشرّ على قاعدة قوميّة [ضيّقة]. إنّه بمقدورك أن تتعاطف مع الفلسطيني لكونه جزءاً من أقليّة تعيش في بلدٍ كالكويت؛ غير أنّه يتولّد عن ذلك جوّ كاملٌ من تعريف شعبٍ على أسس أثنيّة ومن خلال مَوْشور (prism) ضيّقٍ ومضيّق للقوميّة؛ ويتولّد عن ذلك أيضاً إحساسٌ عام في داخل الضحيّة نفسها بانعدام الأريحيّة [تجاه الآخرين]. أنا شخصيّاً أتمتّع بالامتيازات طبعاً (فأنا أعيش في نيويورك)؛ غير أنّني شعرت بخيبة شديدة حين أيّد الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة وغزّة سحقَ العراقيّين للكويتيّين. وحتى لو كان الكويتيّون مغرورين، فلماذا يتماثل الضحيّةُ مع القامع؟ إنّ ما يمكن للمثقّفين والقادة أن يؤدّوه هو التالي: أن يقولوا إنّ الغزو غزو، وإنّهم ضدّ الغزو من الناحية المبدئيّة.

*** هل ترى ضمن الانتفاضة الفلسطينيّة اليوم أيَّ إمكانيّة للإصلاح؟**

ـ أنا متفائل بهذا الموضوع نسبيّاً. إنّ الصعوبات هائلة والمعاناةَ مرعبة، ولكن خضّة عنيفة قد حدثت مع ذلك. إنّ ما حدث قد يبعث على توضيح الأولويّات. إنّ تحالف الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة مع أموال الخليج لم يكن شيئاً رائعاً للغاية. إنّ بناء المستشفيات والمكتبات ورياض الأطفال بدعم من الفلسطينيّين الموجودين في الخليج وبدعم من دول الخليج ذاتها قد كان أمراً هامّاً، غير أنّ الثمن السياسي الذي دفعته الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة كان مرتفعاً؛ فلقد تعلّم جيل كامل من الفلسطينيّين أن يعتمدوا على طرق مختصرة يستحثّها المالُ، وعاد الفلسطينيّون اليوم إلى الاعتماد على مصادر الشعب وطاقاته ذاتها، لا على المصالح الخارجيّة.

*** إنّ المرء يستطيع أن يقول إنّ أزمة الخليج قد بيّنت فشلَ الحركة الفلسطينيّة في توفير قيادةٍ للقوى الديموقراطيّة في العالم العربي، مخلّفةً بذلك فراغاً مكّن صدام حسين من التحرّك فيه.**

ـ الفلسطينيّون سيقولون لك إن مواقف [الرئيس] عرفات أثناء حرب الخليج تعود إلى أنّ فلسطينيّي الضفّةِ والقطاع كانوا قد سبقوا إلى تبنّي تلك المواقف. أنا لا أوافق على مثل هذا القول. إنّ واحداً من الأمور التي يقوم بها القادة هو أن يقودوا. ولقد فشل كثيرٌ منّا في أداء هذا الدور. وإنّه سيكون من الظلم أن نرمي الخطأ كلّه على كاهل القيادة الفلسطينيّة: فالحال أنّ ثمّة فشلاً عامّاً سادَ السنتيْن الأخيرتيْن، فضلاً عن تخلّي الدول والأنظمة العربيّة عن الانتفاضة.

لقد شعرتُ مراراً أنّ منظمة التحرير الفلسطينيّة قد كانت مهْمِلَةً في عدم نشرها محاضرَ اللقاءات التي عقدْتها في تونس مع الإدارة الأمريكيّة؛ فلو حصل ذلك، لكان باستطاعة الناس أن يروا ضآلة ما كسبناه نتيجةً لتنازلنا التاريخي [يقصد الاعتراف بـ«إسرائيل»، والقول بأنّ الميثاق الوطني الفلسطيني «متقادِم»، وغير ذلك...]. إنّ على الفلسطينيّين أن يصنعوا مكاسبَ سياسيّةً من دروس الانتفاضة، وهي دروس تشكّل برنامجَ عملٍ من أجل الديموقراطية والتعاون بين الشعوب. إنّنا الحركةُ الوطنيّة الوحيدة في العالم العربي التي تعمل وفقَ أنماطٍ من التنسيق والترابط تقوم على أسس ديموقراطيّة، لا قمعيّةٍ إلى حدٍّ بعيد، خلّاقة؛ أسسٍ لاتزال بغالبيتها علمانيّة.

إنّه سيكون من الحماقة ألّا نعترف بأنّ العوائق التي تواجهنا عظيمةٌ إلى حدٍّ مرعب. غير أنّ واحداً من الدروس التي تعلّمناها خلال العشرين سنة الماضية ـ وأعتقد أنّ كثيراً من الإسرائيليّين قد تعلّموا ذلك الدرس كذلك ـ هو أنْ لا خيارَ عسكرياً يستطيع أن يلجأ إليه أيُّ طرف من الطرفيْن في مواجهة الآخر. إنّ بمقدورهم [الإسرائيليّين] أن يذبحونا، غير أنّهم لن يستطيعوا أن يتخلّصوا من كلّ فلسطيني ولن يستطيعوا أن يخمدوا شُعلةَ الوطنيّة الفلسطينيّة. والعكس صحيح: فإنّه ليس أمامنا، نحن الفلسطينيّين، خيار عسكري في مواجهة الإسرائيليّين؛ بل إنّ ما نملكه هو رؤية/سبيل لإشراكهم في الشرق الأوسط؛ وهو إشراك يستند إلى احترام القوميّات الواحدة منها للأخرى، وإلى الحقّ في العيش ضمن حدود آمنة مؤمّنة، وإلى التعايش مع الشعوب الأخرى على نحوٍ مفيد.

إنّ التعايش هو سلاحنا الأساسي، غير أنّ أكثرنا لم يدرك هذا الأمر. إنّنا لانزال نؤمن بشعارات الحركة القوميّة العربيّة المستندة إلى القوّة العسكريّة وإلى الدولة ذات نظام الحزب الواحد، وإلى عبادة القائد العظيم؛ وجميعها شعارات مهجورة وعديمة الفائدة. إنّ هذه الشعارات ليست لازمة للنضال الفلسطيني ولم تكن في يوم من الأيّام أساسيّة له. فإلى الحدّ الذي نبقى معه جزءاً من العالم العربي، ونتكلّم العربيّة، ونطالع الأدب الذي يطالعه العرب الآخرون، ونستخدم الخطابات نفسها، فإنّه من المهمّ جدّاً لخطابنا [الفلسطيني] أن يكون متميّزاً عن الخطابات الأخرى وأن يقودها لا أن يَغرق بها كما غرقنا.

*** إنّ الحركات الديموقراطيّة في البلدان العربيّة هاجعةٌ الآن تقريباً. كيف يمكن تفعيل هذه الحركات؟**

ـ إن علينا أن نعمل ضمن إطارَيْن زمنيَيْن اثنَيْن في العادة. الإطار الزمني الأوّل فوري، وبرنامجه تتحكمُ به الأنظمةُ الآن. وكما بيّنتْ أحداثُ العراق، فإنّ أسوأ تلك الأنظمة لا يمكن إزاحته بسهولة؛ ولو حدثتْ هذه الإزاحة فإنّ بديل تلك الأنظمة هو، ببساطة، تنويعاتٌ أخرى لها! علاوة على ذلك، فإنّ لعبَة الأنظمة [أي إزاحتها وتثبيتها] تتحكم بها الولاياتُ المتحدة وحلفاؤها. على أنّ هناك بعض الأمور [الظرفيّة] الانتهازيّة التي يمكن أن تؤدّى؛ يلحظ وجودِ المسألة الفلسطينيّة في وضع جيد في البرنامج [الدولي]. وفي مثل هذه الحال، فإنّ على المرء أن ينخرط في هذه اللعبة، دون أن يكون متفائلاً كثيراً على الدوام.

وهناك البرنامجُ الثاني، برنامجُ «السياسة البطيئة» الذي يستغرق وقتاً طويلاً، ويفسح المجال لبناء التحالفات. إنّ الموقف الذي يحظى بتأييد شعبي حقيقي في العالم العربي ـ إنْ أنت درستَ المواقفَ الشعبيّة بعناية ـ هو ذاك الذي يرفض ما يمثّله صدام حسين ويرفض العواقبَ المدمّرة التي جلبها لبلده ولشعبه، ويرفض في الوقت ذاتِه الخيارَ العسكريَّ الأمريكي.

إنّ التحالف الضروري سيكون بين أناس في أجزاء مختلفة من العالم العربي منخرطين بفعالية في النضالات المحليّة [القطريّة] من أجل الديموقراطيّة والعدالة الاقتصادية وحقوق النساء، وضمن مجموعات الدفاع عن حقوق الإنسان والمجموعات الطلّابية الجامعيّة... وهناك تجمعات للمثقّفين في بعض المعاهد العربيّة المتخطيّة للحدود القطريّة، كمركز دراسات الوحدة العربيّة ومنظمة حقوق الإنسان العربي وعدد من المنظمات الحقوقيّة، إلى جانب مجموعات جامعيّة ومثقّفة تتعاون في مشاريع صغيرة، ومجلّاتٍ مثل **مواقف وفصول وألف**. كما أنّ هناك نقاشات جديّة تجري لأول مرة بين القوى العلمانيّة والقوى الإسلاميّة.

إنّ ما نحتاج إليه حقاً هو لغةٌ نقديّة وثقافةٌ نقديّة شاملة، لا شتمٌ أو ما يُعادل ـ على مستوى الخطاب ـ القتلَ السياسي. إنّ أحد الأهداف يجب أن يكون تقييمَ نظامِ القوة في العالم العربي ونقده، ويجب ألّا يتمّ ذلك وفقاً لمخططات متكلّفة مستوردة من هيغل وستالين وغيرهما؛ فالحال أنّ كثيراً من فجائع اليسار العربي يعود إلى استيراد الأدوات المنهجيّة والنماذج الاستشراقيّة من الخارج، من غير أن يكون لها أيُّ علاقة بحياتنا. علينا أن نطوّر ـ على نحو عضويّ وخلّاق ـ نماذجَ مركّبةً ومختلطة كتلك التي أنتجها عبد الله العروي وأنور عبد الملك ومحمد عابد الجابري. إنّ على أمثال هؤلاء المثقّفين أن يعطوا لنقدِ نظام القوّة رواجاً أعظم في نقاشاتهم.

ونحتاج كذلك إلى لغةٍ تثمينيّة لا تعتمد على التقليد الجامد (dogmatic orthodoxy) أو الإجلال اللذين يُسبَغان على الأفكار القرآنيّة والسلطويّة؛ وإنّما نحتاج إلى لغة تنبع من نقد نظام القوّة ذاك. ينبغي أن يكون في قدرتنا أن نتحدّث عما نريده في عالمنا وحياتنا [اليوم] لا أن نستخدم النموذج الأصولي الذي يقول بأنّ ما نريده هو ما قد حدث في الماضي. ونحن بحاجة إلى حسّ متطوّر بالأشياء التي تحظى باهتمامنا حقاً.

بعد ذلك تأتي المحاسبة من ذلك النقد المزدوج لنظام القوّة ولخطاب اهتماماتنا. وهذا قد يؤدّي بنا إلى المشاركة [الثقافيّة]، وهو أمرٌ قد صدمني في العالم العربي باعتبارِه إشكاليّاً. ذلك أنّ في العالم العربي إحساساً عارماً بالمحليّة الريفيّة (provincialism) وبالانعزال. فالحال انّنا، نحن العرب، لسنا ـ سواء في أدبنا أو إنتاجنا الثقافي ـ طرفاً في النقاش الجاري في العالم. إنّ عدم قدرتنا على أن نكون طرفاً في ذلك النقاش يعود بشكل كبير إلينا. إنّنا محطُّ اهتمام الكثيرين في العالم، لكنّنا على الدوام خارجَه؛ فلسنا مشاركين، من الناحية الثقافيّة، في تقرير مستقبلنا بأنفسنا، رغم أنّ الله وحده يعلم أنّ احتجاجاتنا ومآسينا معروفة جداً.

*** هذا يُحيلنا على دور المثقّف العربي وغير العربي في الولايات المتحدة.**

ـ البارحة سمعتُ نقاشاً في دروس حرب الخليج، وكان سمير الخليل أحد المشاركين فيه. إنّ ما صدمني بوصفه أمراً بالغ الحزن ـ كي لا أقول بائساً ـ هو دعوتُه الولايات المتحدة الأمريكيّة (التي اجتاحت لتوّها بلدَه عسكريّاً) إلى أن تتوغّل أكثر في العراق وتُزيح صدام حسين عن الرئاسة. إنّ القضية الوحيدة، في نظر سمير الخليل، هي تلك التي يحسّ بها بوصفه عراقيّاً يتألّم بصدق، لكن هذا يبدو لي جزءاً فحسب من بؤس الوضع كله. فهو ذكيّ، ذرب اللسان، غير أنّه عاجز عن أن يربط نفسه بأيّ قضيّة غير تلك التي هي بنتُ ساعتها، مفقداً منظورَه كُلَّ واقعيّة. لقد اكتشفَ فجأةً أنّ عليه أن يفعل شيئاً، فإذا به يناشد الولايات المتحدة التي دمّرت بلده للتوّ أن تأتي وتنقذه! إنّه لأمرٌ مذهل.

إنّ واحداً من الأدوار التي يؤدّيها المثقّفون العرب في الغرب هو أن يكون ذلك النوعَ من فئران المختبر: فلكونك من العراق، فإنّه عليك أن تحدّثنا [نحن الأمريكيّين] عن العراق، وحين لا نكون معنيّين بشؤون العراق، فإنّنا لا نريد أن نسمعك! هذا هو دور

المخبر ابن البلد (native informant)، وهو دورٌ غير مقبول في رأيي. إنَّ علينا، بدلاً من ذلك، أن نكون في جميع الأماكن، وأن لا نبحث في مشاكل العالم العربي وحده، بل أن نكون قادرين كذلك على أن نتحدَّثَ في أمورٍ تختصّ بهذه البلاد [الولايات المتحدة] التي نعيشُ فيها ونعمل.

ولا يَستطيع المثقّف أن يندفع فجأة ليقوم بتلك الخطابيّة التولستوييّة الطنّانة التي ستنقذ شعبه. إنَّ سمير الخليل يناشد النّاس الذين هم أنفسهم مسؤولون عن جزءٍ كبير من المأساة الراهنة في وطنه. لقد تعاون أولئك الناس [العاملون في الإدارة الأمريكيّة] مع صدام في السابق، وهم الآن يسندونه بعد أن دمّروا بنى العراق التحتيّة.

*** لقد كتب نعوم شومسكي عام ١٩٦٧ في سياق حرب الولايات المتحدة ضد ڤيتنام مقالةً عنوانها «مسؤوليّة المثقّفين»(*) فما تراها تكون المحتويات البارزة لمثل هذه المقالة اليومَ؟**

- إنَّ على المرء أن يخرق، إلى حد بعيد، كلَّ الأفكار المابعد حداثيّة المجعجِعَة التي ترسم المشهد الثقافي الراهن. إنَّ تلك الأفكار أسوأ من عديمة الفائدة! إنّها عاجزة عن فهم بنى السلطة في هذه البلاد وعن تحليلها، وعاجزة عن فهم الفضيلة الجماليّة للعمل الفنّي الواحد. وسواء سمّيت تلك الأفكار «تفكيكاً» أو «ما بعد حداثة» أو «ما بعد بنيويّة» أو «ما بعد أي شيء»، فإنّها جميعها تمثّل نوعاً من عرض مسرحيّ يقوم المرءُ بموجبه بردّ البطاقات إلى أصحابها عند المدخل وإخبارهم بأنّنا لسنا مسؤولين عن أيّ شيء، وبأنّنا نريد أن نجلس في منتجعنا الخاصّ فلا نقابلَ أحداً!

إنَّ إعادة الانخراط بالعملية الثقافيّة تعني العودة إلى مهنة أكاديمية قديمة، تاريخيّة وأدبيّة وثقافيّة (بالدرجة الأولى)، مستندة إلى مقدّمة منطقيّة تقول بأنّ الناس، رجالاً ونساءً، يصنعون تاريخهم بأنفسهم، وبأنَّ الأحداث قد تتحوّل عن صورتها الأولى، وقد تُعاد صياغتها. إنّ ذلك الإحساس بالقوّة الثقافيّة والسياسيّة والمدنيّة هو ما يُعْوِز الطبقة المثقّفة.

إنَّ ثمة سبيلاً أوْحدَ لكي يكون للمثقّف مُرتَكَزٌ، وذلك لا يتم إلاّ بالانتماء إلى قضية، إلى حركة سياسيّة. ويجب ألاّ يتمّ تماثُل المثقّف مع وزير الخارجيّة أو الفيلسوفِ الأبرز في زمانه، وإنّما يتم التماثل مع قضايا تتعلّق بالعدالة والمبادئ والحق والاقتناع، وهذه لا تحدث في مختبر أو مكتبة. وهذا يعني، للمثقّف الأمريكي في نهاية المطاف، أنَّ على العلاقة بين الولايات المتحدة وباقي العالم - وهي علاقة ترتكز اليوم إلى الفائدة والسلطة - أن تتغيّر لتصبح علاقة تعايش بين المجتمعات الإنسانيّة التي تستطيع أن تصوغ/وأن تعيد صياغة توازنها وبيئاتها الخاصة معاً. إنَّ هذا هو ما يجب أن يكون في المحلّ الأوّل، فليس ثمّة ما يوازيه في الأهمّيّة، ولا ينبغي للجامعات أن تكون مجرّد منبرٍ للتخصّص النرجسي المولييري. بلْ إنَّ ما نحتاجه هو احترامٌ لإنتاج العقل الإنساني. وهذا ما يدفعني إلى الاكتئاب بصدد النقاش في بعض سمات «الشرعة الغربيّة العظيمة»؛ وهو نقاش يوحي بأنَّ المضطَهدين في العالم، إذْ يريدون أن يُستَمع إليهم ويريدون لعملهم أن يُقَرَّ به، فإنّما يريدون في الحقيقة أن يلوّثوا كلَّ عملٍ آخر. غير أنَّ هذا ليس من روح المقاومة في شيء؛ ونحن في هذا الصدد نعود إلى بيت ايميه سيزير «إنَّ هناك فسحة للجميع في لقاء النصر».

*** في بعض الجامعات كانت هناك مؤخراً مسألتان أساسيّتان: حرب الخليج ومسألة التعدّد الثقافي. لكنّي لم أجد أيّ ربط بين المسألتيْن.**

- في الجامعة نفسها تكون سيادة الأنماط المستندة إلى الهيمنة والقهر عاتية؛ ذلك أنَّ فكرة السلطة قويّة جداً، سواء نبعت من الدولة القطريّة، أوالدين، أوالعرقيّة، أوالتقاليد. إنّهامن القوّة بحيث لم يتصَدَّ لهاشيءٌ من الناحية النسبيّة، بما في ذلك الدراسات والمناهج التي نمارسها نحن. إنَّ جزءاً من الفعل الثقافي هو أن نفهم كيف تتشكّل السلطة. فالسلطة ليست من عند الله؛ بل إنّها شيء دنيوي. ولو فهم الإنسان ذلك، فإنَّ عمله سيتمّ على أساس القدرة على تقديم بدائل للأنماط السلطويّة القهريّة التي تسود قسماً كبيراً من حياتنا الثقافيّة والوطنيّة والسياسيّة، بل تسود حياتنا العالميّة قبل كلّ شيءٍ آخر.

(*) نشرت الآداب نصّ هذه المقالة في العدد السادس من عام ١٩٩٣.